

القسطنطينية

بناها قسطنطينُ على أنقاض يزنطية . كانت عاصمةً لمملكة الروم الشرقية ، كما كانت رومة قاعدةً للإمبراطورية الغربية . اختان تشابها بالعز ، وعاشتا زمنًا ، لكلٍ مجدها المؤئل ، وجلالها المهيب . وهي كرومة قائمة على سبع تلالٍ مرتفعات ، في مثل شبه جزيرة مثلثة الزوايا يحيطُ بها الماء من جهاتٍ ثلاث : تطلُّ على بحر مرمره من الجنوب ، وتُماشى البُسفور من الشرق ، وتلمس خليجَ قرن الذهب من الشمال . ثمَّ ينبسط إليها من الغرب سهلٌ يقف حذاءها ، متهيأً جلالها ، فتشرف عليه من مكانها العالي كالنسر باسطاً جناحيه

حصنها الروم منذ القدم ردًا لنارات الاعداء ، وعززها الترك على أثرهم صددًا لهجمات الطامعين . فبنى الأولون سورها وابراجها ، وشاد الآخرون حصونها وقلاعها . ولكن الطبيعة برزت أولئك وهولاء في كل ما بنوه وشادوه ، فنمت موقعا بالهضاب المتسلسلة ، والبواغيز الضيقة ؛ فاذا هي كعقاب الجو ، لا تؤخذ ، واذا هي ، كحلق الليث ، لا تباح أرادها العرب ، يوم كانوا يستطيعون ما يريدون ، ففشلوا ، وحاصروها حين لم تكن مدافع ولا قنابل ، فارتدوا عنها عاجزين . وظلت تردُّ بمنعتها غوائل الاعداء ، وتدافع بعزتها كوارث الأيام ؛ الملك عزيز بها ، وسلالة بانيتها تتوارث مجدها وتنعم بجاهها ، حتى دب الضعف الى الروم ، وتغلغل الوهن في نفوسهم ، يوم ابطرتهم نعمة العيش ،

واسكرتهم غبطة السلطان ، فشي عليها محمد الفاتح ، وحاصرها من البحر
والبر ، ثم اخذها عنوة واقتداراً في سنة ١٤٥٣

محمد ا كسرت جناح النسر ، فأهوى من سمائه ، واقتلعت ناب
الليث ، فاستبحت حماه ،

بناها قسطنطين ، واستأثرت بها أنت ؛ كانت للروم فصيرتها الى
الترك ؛ ما خفق عليها الصليب ، حتى رفعت فوقها الهلال ؛ بينا هي قاعدة
الامبراطورية ، اذا بها دار الخلافة ؛

فتحتها يباسك ، وصنتها بحولك ومجدك ، ثم توارثها ابناؤك
من بعدك ؛

مانمت عنها ولكن نام بنوك ؛

عجبا ينام الترك عنها ، وعيون الروم يقظى عليها ؛

أمنتصب الروم ملكهم ، ثم انظر الى بقايا ملكك العظيم

النسر الذي اصطدته قد استنسرت أفراخه ؛

والليث الذي اقتنصته قد استأسدت أشباله ؛

البلغار على ابواب فرزق ، والروم أمام الدردنيل ؛

ليست فروق عروس الشرق وحده ، بل هي عروس الدنيا جميعها .

خلقت صورة مكبرة للجمال ، ومثالا مصغرا لجنان النعيم ؛

هي إنجيل الطبيعة أنزلت فيه آيات الحسن ، ونمق الدهر صفحاته

بطرانز البديع ؛ فيه وحي الحب ، والهيام الشعر ؛ وكل لفظةٍ يحتويها ،
تحتوي ألف معنى من معاني العظمة والجلال !

فَرُوقُ دَرَّةٍ في فَمِ البُسْفُورِ ، ولؤلؤة في عُنُقِ الدردنيل ؛ هي عقد
من الماس يصل بحر مرمره بالبحر الأسود ؛ هي تاج من الجواهر على
مفرق آسيا وأوروبا ؛ هي كوكب وقاد أطلعت الطبيعة بين الشرق والغرب ؛
رب ان سمحت بأن تعبد الجمال ففروق السجود والعبادة !



وقفت على البوسفور حيث تمشى من البحر الاسود ، وماشيتة الى
حيث التقى بحر مرمره ، فلم أجد منظرًا أعظم تأثيرًا في النفس ، من مشية
ذلك البوغاز الضيق ، العميق ، الطويل ، المتلوي في مسيره ، كما تتلوى
الأفمى في زحفها

أحاطت به من على ضفتيه : الأسيوية والأوروية ، ربوع خضراء
زاهية ، ومغان مشجرة تعانق سهولها الماء في ذلك الوادي ، ثم تتدرج
في الصعود حتى تراها تلالاً عالية ، قرية المآخذ ، متصلة الرؤوس بالكمام
كالرمح أنبوب على أنبوب

وأطلت مآذن الجوامع على قرنه الذهبي قماوجت خيالاتها سابحة
في مياهه الرائقة ؛ وتراكضت أشعة الشمس اليه ، فانعكست عنه الى
جانبيه ، فتلهى النسيم يلعبُ بها ، كما يتلهى وليدٌ يلعبُ بانعكاس النور
عن المرآة

ورأيتُه ، ليلة عيد الدستور ، في أوائل الصيف ، وقد راقب الجوُّ

وصفا أديم السماء ، وتلايلات الأنوار على ضفتيه ، ومشت فيه البواخر
 مشعشة بالأضواء ، وتزلت إليه نجوم الفلك تنفسل فيه الى جانب الأشعة
 المتحدرة اليه من برّي آسيا واوروبا ، في وسط الأنوار المتدققة عليه من
 تلك البواخر السارحات الرائحات ؛ فأخذ هذا المنظر بمجامع قلبي ،
 وسكت مخافة ان يشغلي الكلام بوصفه ، عن التمتع لحظةً بجماله ؛ غير
 اني أسررتُ الى نفسي هذه الكلمات :

طوبى لمن دفنه عبد الحميد في البُسفور فقد ذهب الى الجنة من

أقرب طريق !



أكان البسفور طريق الأحرار الى الجنة ، كما كان طريق وليّ الدين
 بك يكن الى سيواس ؟؟؟ لست أدري ! غير ان وليّ الدين نفسه يقول
 في وداع فروق يوم نفي منها :

« ... واذا نحن نسير بين منظرين ما تفتحت الأعين على أحسن
 منهما : شطي آسيا وأوروبا ، يتناغيان بالمصاييح . عاشقان ضنّت عليهما
 الاقدار بالتلاقي . مررنا بهما أم مرّا بنا . لا أعلم . صحائف أجاد الحسن
 فيها منمقة . نشرت فانطوت . زلت عنها الأبصار وضاعت عنها الفهوم .
 فرائيها متخيل وعارفا متوهم . ما شكّ ناظر الى السماء واليها انت تلك
 المصاييح كواكب سقطت عليها . عهدي بها في حالتها ، بينا هي عرين
 اذا بها كناس . يخالط فيها كل زئير ليث عندلة عندليب . تجاور بها
 مسارح آرام ومصارع كرام . تسقى من ماء معين ، ومن دم مهراق . تطالعها

وجوه ضاحكة، وأخرى مجهشة . تقسمتها مواسم الصبا فهي تارة مشتی،
 وآونة مصيف، وحيناً مربع . جنة يحرسها حارس جهنم . فروق يا ظلوم .
 خذي روحي فها هبطت عليّ الأفيك . كان بك مهدي . وأريد أن
 يكون بك لحدي . الوداع الوداع يا فروق . وسلام الله عليك وعلى
 بنيك كلهم . هذا طريد جديد . مظلوم يلحق بمظلومين . يخرجوتي منك
 ليلاً لأراك في ثوب حدادك . أمن أجلي كل هذا ؟ كلا . بل حدادك
 على اختك الغزاة . أنا أضيعُ فيك من دمة على خد مهجور . أنا أهون
 على الدهر من ذرة من ذراتك ضلّت بين ثنيات الأثير
 ما هذه بلاغة الواصف ، إن هي إلا حقيقة الموصوف !

*
*
*

رويداً رويداً أيها الدهر ! ترقق بفروق ؛ أقصر خطوبك عنها .
 فروق بنت الأجيال تطويلة ؛ مدينة الأبراطرة ، وكريسي السلاطين .
 أفي كل يوم نكبة تروعها ، وفي كل ساعة كارثة تساق إليها ؛ بنوها
 يتآمرون على بنينا ؛ وشعوبها تقاتل الشعوب دفاعاً عنها . لو ثوا محاسنها
 بالدم المسفوك على مذابح المطامع والأناية ؛ ضجت الأرض لهول ما
 تلقاه من فظائع حربهم ، وانحمت ذئاب الفلاة من أشلاء قتلاهم !
 رويداً أيها الدهر ! هل أتعب مرور الأجيال كاهل يزنطية ؟
 خذ يديها ، ان تقاضها تتحرك تحت فروق ! !

